معركة المنصورة وأسر لويس التاسع

الباحثة فتيحة
قسم التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة إدلب

ملخص باللغة العربية:

الحملة الصليبية السابعة حلقة في سلسلة الحروب الصليبية، بدأت الحملة بإرسال بطريرك بيت المقدس سفارة إلى الغرب الأوروبي، طالباً النجدة والمساعدة، وكان ملك فرنسا لويس التاسع أول المستجيبين للحرب، أبحر باتجاه قبرص، ومنها إلى مصر، تمكنت الحملة من احتلال دمياط، لكنها تعرضت لهزيمة كبيرة في المنصورة، نتج عنها فشل الحملة ووقوع الملك الفرنسي في أسر المسلمين، تلا ذكر الدخول في مفاوضات لإطلاق سراح الملك وانسحاب الصليبيين من دمياط، في حين كان من أهم نتائج الحملة بالنسبة إلى المسلمين انتقال حكم الشام ومصر من الأيوبيين إلى المماليك.

الكلمات المفتاحية (لويس التاسع، دمياط، المنصورة، المسلمين)

ملخص بالغة الإنكليزية:

The Seventh Crusade constitutes a link in the chain of the Crusades. The campaign was initiated when the Patriarch of Jerusalem dispatched an embassy to Western Europe, seeking aid and assistance. King Louis IX of France was the first to respond to the call for war. He sailed toward Cyprus, and from there to Egypt, where the crusading forces succeeded in occupying the city of Damietta. However, the campaign suffered a crushing defeat at Mansoura, which resulted in its complete failure and the capture of the French King by the Muslims.This was followed by negotiations for the release of the King and the withdrawal of the Crusaders from Damietta. Among the most significant outcomes of the campaign for the Muslims was the transfer of power in Egypt and the Levant from the Ayyubids to the Mamluks.

Keywords: **Louis IX**, **Damietta**, **Mansoura**, **Muslims**

مقدمة:

الحروب الصليبية ملحمة عسكرية بدأت في القرن الخامس الهجري، الحادي عشر الميلادي، وامتدت نحو قرنين، كان الدافع الظاهر لها دينياً، لكن أسباباً سياسية واقتصادية واجتماعية تداخلت معه، وعلى الرغم من أنها حملة واحدة مستمرة، كانت تصلها النجدات بشكل متواصل براً وبحراً، وبين حين وآخر، فقد قسمت إلى ثمان حملات، اتجهت أربع منها نحو الشام (الأولى والثانية والثالثة والسادسة) واثنتان ضد مصر (الخامسة والسابعة) وواحدة ضد القسطنطينية (الرابعة) والأخيرة نزلت بشمال أفريقيا (الثامنة) وسيكون مجال البحث معركة المنصورة وأسر لويس التاسع، وذلك نظراً لأهمية هذه المعركة والنتائج الكبيرة التي تركتها.

وقد اعتمد في كتابة البحث، على التفسير والتحليل المنطقي الأكاديمي، ومناقشة الأحداث وتحليلها والغوص فيها، للوصول قدر الإمكان للحقائق العلمية وتم الاعتماد على كتب المؤرخين المعاصرين للحملة الصليبية السابعة ولاسيما جوانفيل ومتى باريس والمقريزي وأبي الفداء وأبي شامة وابن تغري بردي وابن سباط وابن إياس، التي قدمت كماً هائلاً من المعلومات، تم اختزالها وبيان صحتها وتعليلها.

يتألف البحث من مقدمة تتضمن التعريف بالبحث، ومتن يتضمن الدعوة للحملة الصليبية السابعة، وأوضاع الدولة العربية الإسلامية عشية قدومها، ثم يتناول خط سير الحملة من وقوفها في قبرص، إلى احتلالها لدمياط، ثم هزيمتها في معركة المنصورة وأسر لويس التاسع، وأخيراً عقد اتفاق وإطلاق سراح لويس التاسع، وينتهي البحث بذكر أسباب إخفاق الحملة وأهميتها ونتائجها.

تمهيد:

إن وجود الصليبيين في الشام ساعد على زيادة الفرقة بين المسلمين، حيث أن الدولة العربية الإسلامية لم تكن موحدة، فهناك الصالح نجم الدين أيوب سلطان على مصر، والصالح إسماعيل سلطان على دمشق، وأخذ كل واحد يسعى للحصول على دعم الصليبيين له ضد الآخر، فقد تنازل الصالح إسماعيل سلطان دمشق عن الجليل بما فيها طبرية سنة 638 هـ / 1240 م، وللغاية ذاتها تنازل الصالح أيوب عن عسقلان للصليبيين[1].

لكن هذه لم تكن سوى مكاسب مؤقتة، ففي سنة 642 هـ/ 1244م تمكن الأتراك الخوارزمية من استرداد القدس من الصليبيين، وفي سنة 645هـ/ 1247م، فقد الصليبيون كلاً من طبرية وعسقلان، وكان هناك أيضاً خلاف بين الأشرف موسى ملك حمص، والناصر يوسف ملك حلب، الذي استولى على حمص سنة 646هـ / 1248م، وعندما عَلِم الصالح نجم الدين أيوب بذلك خرج من مصر، قاصداً دمشق، ومنها أرسل قواته بقيادة الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ، الذي فرض الحصار على حمص، إلا أن الصالح نجم الدين أيوب، اضطر إلى عقد صلح مع الناصر يوسف ملك حلب، بتدخل من الخليفة العباسي في بغداد، وذلك عندما علم بتجمعات الصليبيين في قبرص، وبأن الخطر يهدد مصر[2].

الدعوة للحملة الصليبية السابعة وموقف أوروبا منها:

كانت اتفاقية يافا، التي أبرمت بين الإمبراطور الألماني فردريك الثاني وبين الكامل محمد، سنة 626 هـ/ 1229م، قد انتهى أمدها بعد انقضاء سنواتها العشر، وأخذت تلوح في الأفق الدعوة إلى حملة صليبية جديدة، وكانت أوضاع الصليبيين سيئة في بلاد الشام مما دفع بطريرك بيت المقدس إلى الإسراع بإرسال سفارة إلى الغرب الأوربي سنة 642 هـ/ 1245 م ليشرح للبابوية وملوك الغرب وأمرائه خطورة وضع الصليبيين بالشام، ويطلب منهم معونة عاجلة، ولحثهم على النهوض بحملة جديدة، وأسفرت جهود السفارة عن عقد مجمع ليون، في صيف

(1) –كروسيه (رينه): الحروب الصليبية صراع الشرق والغرب، تر: أحمد أيبش، دار قتيبة، ط1 دمشق 2002 م، ص87.

(2) –عاشور (سعيد عبد الفتاح): الحركة الصليبية، مكتبة الأنجلو المصرية، ط4، القاهرة، 1986م، ج2، ص836.

سنة 643 هـ / 1245 م، حيث دعا البابا أنوسنت الرابع (1242هـ – 1254م) للقيام بحملة صليبية لإنقاذ الأراضي المقدسة، ونجدة الصليبيين في الشرق[3].

ولكن حدث صراع في الغرب الأوربي بين البابوية والإمبراطورية، الأمر الذي حال دون تكاتف بلدان الغرب الأوربي (وخاصة ألمانيا وايطاليا) في المشروع الصليبي الجديد، اللتان أعرضتا عن تلبية هذه الدعوة بفعل الصراع الذي كان قائماً حينذاك بين البابوية والإمبراطورية، بينما لاقت دعوة البابا قبولاً واستجابة عند لويس التاسع ملك فرنسا، الذي كان معروفاً بورعه وتقواه، حتى لقب بالقديس وحينذاك كان لويس التاسع ملك فرنسا، قد أصيب بمرض خطير، فنذر أثناء مرضه أن يقوم بحملة صليبية إذا شفي، ولما تم شفاؤه وجد في تلك الدعوة فرصة طيبة للوفاء بنذره[4] .

انطلق الدعاة والمبشرون يطوفون أنحاء أوربا، لحث شعوبها وحكامها على الاشتراك في الحملة، أو دعمها مادياً ومعنوياً، كما أخذ لويس التاسع يشجع رجال مملكته، ويبث الحماسة فيهم، ويثير مشاعرهم الدينية، فكان أول من حمل الصليب أمامهم، وحذا حذوه أخوته الثلاثة: روبرت كونت دي أرتو وألفونسو، كونت بواتيه، وشارل أنجو، الذي صار فيها بعد ملك صقلية، وأيضاً هوغو دوق دي بيرغندي، و وليم كونت فلاندرز[5]، وكانت هذه الحملة بحاجة إلى المال لتغطية نفقات إعداد المؤن والذخيرة، وتيسير وسائل النقل، لذلك دعا البابا أنو سنت الرابع (1242– 1254) م، الملوك والأمراء والنبلاء وكبار تجار المدن الذين لن يذهبوا بأنفسهم لغزوا الأراضي المقدسة، أن يمدوا الفرق الصليبية بالمصاريف اللازمة لمدة ثلاث سنوات كل حسب مورده كما دعا جميع رجال الكنيسة أن يساهموا بجزء من دخل الكنائس لمدة ثلاث سنوات، ولما كان الجيش الصليبي جيشاً إقطاعياً بتكوينه فقد كان على كبار رجاله من النبلاء والبارونات، إعداد المال اللازم للصرف على فرقهم، فقاموا برهن أراضيهم وممتلكاتهم[6]، أما الملك لويس التاسع فاستأجر عدداً من سفن جنوة، بينما أحجمت البندقية عن تقديم سفنها لحرصها على مصالحها وامتيازاتها في مصر[7].

وعندما عزم ملك فرنسا لويس التاسع على تنظيم حملة جديدة على مصر، حاول الإمبراطور الألماني فريد ريك ثنيه عن عزمه، وحين أخفق في منع الحملة بادر وأخبر الصالح نجم الدين أيوب باستعدادات الحملة[8]، حيث أرسل رسولاً بزي تاجر إلى مصر بشكل سري، خوفاً من الفرنسيين أن يعلموا ممالأة الإمبراطور للمسلمين عليهم[9].

وربما يكون السبب في موقف الإمبراطور فريدريك الثاني هذا من الحملة هو خوفه أن تصب نجاحات الحملة وإنجازاتها في مصلحة البابا، المؤيد للملك الفرنسي لويس التاسع، فترجح كفة البابوية، وينحسر نفوذ الإمبراطورية[10].

---

(2)- باريس (متى): التاريخ الكبير، الموسوعة الشامية، دار الفكر، دمشق، 2001م، ج47، ص 754-757.

– جمول (جميل): مصر والحروب الصليبية، رسالة أعدت لنيل درجة الدكتوراه، إشراف: سهيل زكار، جامعة دمشق، 2004 م، ص211.

(4) –عاشور: المرجع السابق ج2، ص 832.

(5) –جوانفيل (جين لورد): حياة القديس لويس، الموسوعة الشامية ج36، دار الفكر، دمشق، 1999، ص 50.

(6) –يوسف (جوزيف نسيم): العدوان الصليبي على مصر، دار النهضة، بيروت، 1981، ص 62-63.

(7)- جمول: المرجع السابق، ص 213.

(8) –معلوف (أمين): الحروب الصليبية كما رآها العرب، تر: عفيف دمشقية، دار الفاروق، ط2، بيروت، 1993، ص 295.

(9) –ابن واصل: مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق: جمال الدين الشيال، دار القلم، ط1، 1960م، ص 247.

(10)- نصت اتفاقية يافا سنة 626هـ / 1229 م، على تعهد الإمبراطور الألماني فريدريك الثاني بالبقاء على الحياد تجاه أي حرب ضد المسلمين، وأن يمنع خرق الهدنة، كما أنه أراد الحفاظ على صداقته مع الأيوبيين.

استغرقت استعدادات الحملة زُهاء ثلاث سنوات، ابتداءً من سنة 643هـ/ 1245م ومع إطلالة صيف سنة 646 هـ / 1248 م، تحرك الملك الفرنسي لويس التاسع صوب مدينة ليون الفرنسية، حيث كان البابا أنو سنت الرابع، مقيماً فيها[11]، فقدم له احتراماته بتواضع وإخلاص، وطلب إليه الصفح عن الإمبراطور فردريك الثاني، لكن البابا أصر على موقفه وأبقى الحرمان الكنسي على الإمبراطور[12].

لويس التاسع في قبرص:

في 4 جمادى الأولى سنة 646 هـ/ 5 آب سنة 1248 م، أبحر ملك فرنسا لويس التاسع صوب جزيرة قبرص[13]،حيث وصل ميناء ليماسول في27 جمادى الأولى / 17 أيلول من السنة نفسها، ومع أن الملك الفرنسي لويس التاسع، كان يود الذهاب مباشرة إلى مصر، دون التوقف في قبرص فقد أهدر بها قرابة ثمانية أشهر، نزولاً عند نصيحة بارونات، وذلك لانتظار بقايا المتطوعين الذين لم يكونوا قد وصلوا بعد، وكان من بينهم جوانفيل المؤرخ[14]، وأيضاً لانتظار انتهاء فصل الشتاء، وعندما وصل الصليبيون قبرص شعروا بأنهم في ديارهم مع بني قومهم، وبأنهم ليسوا غرباء في هذه الجزيرة التي كان ملكها هنري الأول قد أحسن استقبال الحملة[15]، ثم إن السلطات القبرصية ساعدت لويس التاسع في الحصول على كميات ضخمة من التموين لرجاله من النبيذ والغلال، وبذلك أتاحت الأشهر العديدة التي قضاها لويس التاسع في قبرص، فرصة طيبة للصليبيين، على تجميع أنفسهم، والحصول على المؤن، وعلى المساعدات البشرية، التي حصل عليها لويس التاسع من هنري الأول ملك قبرص ومن زعماء الصليبيين الذين وفدوا من عكا وغيرها[16].

وقد أجرى لويس التاسع أثناء إقامته في قبرص اتصالات مع الداوية والاسبتارية ومع الصليبيين في الساحل الشامي ومع ملك أرمينيا هيثوم الأول حيث طلب منه إمداد بوهيموند الخامس أمير إنطاكية، ببضع مئات من المحاربين، لرد غارات التركمان[17].

واستقبل لويس التاسع في قبرص، بعثة مغولية، ذهبت إلى حد التلويح له بإمكان اعتناق المغول الديانة المسيحية، وإنهم على استعداد لتقديم العون في الاستيلاء على الأرض المقدسة، واستخلاص القدس من أيدي المسلمين، وقد أرسل لويس التاسع مع هؤلاء الرسل إلى ملك المغول، خيمة أعدت لتكوين كنيسة[18].

إن المدة الطويلة التي قضاها لويس التاسع في قبرص، والتي قدرت بثمانية أشهر، كان لها نتائج وآثار إيجابية وسلبية، الإيجابية تمثلت في الحصول على المؤن، وتجميع الصليبيين في قبرص، واستقبال البعثة المغولية، والتشاور مع الصليبيين في الشام ومع الداوية والاسبتارية، إلا أن

(11)- باريس: الموسوعة الشامية، ج48، المصدر السابق، ص 1009.

(12)- كان البابا أنو سنت الرابع حريصاً على فرض سلطته الدينية والسياسية على أوربا وعلى فرض الحرمان الكنسي على أي ملك أو إمبراطور يحاول الانشقاق والابتعاد وعدم تنفيذ أوامره.

(13)- شكلت جزيرة قبرص قاعدة متقدمة للصليبيين منذ الحملة الصليبية الثالثة، وغدت حلقة اتصال بين أوربا والكيانات الصليبية في الشرق، وأخذت تزود الصليبيين بما يحتاجونه من جنود وميرة.

(14)- جوانفيل: الموسوعة الشامية، ج48، المصدر السابق، ص 58.

(15)- يوسف (جوزيف نسيم): المرجع السابق، ص 97.

(16)- جوانفيل: الموسوعة الشامية، ج36، المصدر السابق، ص 97.

- عاشور: المرجع السابق، ج2، ص 835.

(17)- يوسف (جوزيف نسيم): المرجع السابق، ص 97.

- عاشور: المرجع السابق، ج2، ص 835.

(18) -جوانفيل: الموسوعة الشامية، ج36، المصدر السابق، ص 58-59.

- معلوف: المرجع السابق، ص 295.

الآثار السلبية تمثلت في أنها أفقدت الحملة عنصر المفاجأة، ومكّنت الأيوبيين من الاستعداد للحملة، والتصدي لها، كما أن طول المدة التي قضاها في قبرص أضعفت حماس الجند.

أوضاع الدولة العربية الإسلامية عشية قدوم الحملة الصليبية السابعة:

كانت الدولة العربية الإسلامية في العصر الأيوبي، تعاني الكثير من المتاعب بسبب المنازعات بين أمراء بني أيوب في مصر والشام، فقبيل وصول الحملة الصليبية السابعة إلى مصر، استولى الناصر يوسف ملك حلب على حمص سنة 646هـ / 1248 م، فخرج الصالح نجم الدين أيوب من مصر قاصداً دمشق، ومن هناك أرسل قواته بقيادة الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ لاسترداد حمص، حيث حاصر المدينة لعدة أشهر، وعندما علم الصالح نجم الدين أيوب بتجمعات الصليبيين في قبرص، وبأن الخطر يهدد مصر، اضطر إلى عقد الصلح مع الناصر يوسف ملك حلب[19].

وفي ذلك الوقت، كان السلطان الصالح نجم الدين أيوب قد فاجأه مرض ثقيل وهو تورم في مأبضه، وانضاف إليه قرحة في الصدر، فلزم الفراش في دمشق، فلما علم بعزم الصليبيين على مهاجمة مصر وأخذها، وقد أكثروا من التجنيد لم يسعه إلا مبارحة دمشق[20]، فنزل بأشموم طناح وجمع في دمياط من الأقوات والأسلحة الشيء الكثير، وبعث إلى الأمير حسام الدين إلى نائبه بالقاهرة أن يجهز الشواني من صناعة مصر، فشرع في تجهيزها، وأمر السلطان نجم الدين أيوب فخر الدين بن شيخ الشيوخ، أن ينزل على جيزة دمياط بالعساكر، ليصبح في مقابلة الصليبيين إذا قدموا، فتحول الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ فنزل بالجيزة تجاه دمياط وصار النيل بينه وبينهم[21].

وأوكل الصالح نجم الدين أيوب إلى بني كنانة، وهم قبيلة عربية معروفة بالشجاعة مهمة الدفاع عن دمياط[22]، وشحنها بالميرة والذخيرة وآلات الحرب أما سبب اهتمام الصالح نجم الدين أيوب بدمياط، فيرجع إلى أهمية المدينة، وأنها كانت هدفاً للصليبيين في الحملة الخامسة.

كان لويس التاسع ملك فرنسا قد أرسل كتاباً إلى الصالح نجم الدين أيوب وأهم ما ورد في هذا الكتاب (أن أهل جزائر الأندلس يحملون إلينا الأموال والهدايا، ونحن نسوقهم سوق البقر ونقتل منهم الرجال ونرمل النساء، ونستأثر البنات والصبيان ونخلي منهم الديار ..... وقد عرفتك وحذرتك من عساكر قد حضرت في طاعتي، تملأ السهل والجبل، وعددهم كعدد الحصى، وهم مرسلون إليك بأسياف القضا).

فلمّا وصل الكتاب إلى السلطان وقُرئ عليه، امتلأت عيناه بالدموع، ثم أرسل الجواب إلى لويس التاسع، وأهم ما جاء فيه (أمّا بعد فإنه وصل كتابك، وأنت تهدد فيه بكثرة جيوشك وعدد أبطالك فنحن أرباب السيوف، وما قتل منا قرن إلا جددناه، ولا بغى علينا باغ إلا دمرناه. فلو رأت عيناك – أيها المغرور– حد سيوفنا، وعظم حروبنا لكان لك أن تعض على أناملك بالندم، لابد أن تزل بك القدم، في يوم أول لنا وآخره عليك. فهناك تسيء بك الظنون، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون. فإذا قرأت كتابي هذا، فكن فيه على أول سورة النحل "أتى أمر الله فلا تستعجلوه" وكن على آخر سورة ص "ولتعلمنّ نبأه بعد حين"[23].

(19) –المقريزي (تقي الدين أحمد بن علي): كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك، صححه: محمد مصطفى زيادة، دار الكتب المصرية، ط1، القاهرة، 1934 م، ج1، ق2، ص 330.

(20)– الحريري (سيد علي): كتاب الأخبار السنية في الحروب الصليبية، مطبعة النيل، ط1، القاهرة، 1911م، ص 344.

(21)– المقريزي: المصدر السابق، ج1، ق2، ص 333.

(22) –ابن خلدون (عبد الرحمن): كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، مؤسسة الأعمى للمطبوعات، بيروت، 1971 م، ص 359.

(23) –المقريزي: المصدر السابق، ج1، ق2، ص 334-335.

– عاشور: المرجع السابق، ج2، ص 837.

حصار دمياط وسقوطها:

عهد الصالح نجم الدين أيوب، إلى الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ بالوقوف على رأس قوة على البر الغربي لفرع دمياط، لمنع الصليبيين من النزول على ذلك البر[24]، وكانت الحملة الصليبية السابعة قد وصلت إلى شواطئ مصر في 20 صفر سنة 647 هـ / 4 حزيران سنة 1249 م. حيث رست قبالة البحر الغربي لدمياط، والسؤال هنا، لماذا اختار الصليبيون مدينة دمياط ولم يتجهوا نحو الإسكندرية؟

إن ذلك يرجع إلى أهمية دمياط من الناحية التاريخية فقد استولوا عليها في الحملة الخامسة بعد حصار دام حوالي السنة، ويرجع أيضاً إلى أهمية المدينة من الناحية الجغرافية حيث تعد دمياط أقرب موانئ مصر إلى بيت المقدس، فضلاً على أن ميناء دمياط، كان يفضي بالصليبيين إلى القاهرة مباشرة[25].

نزل الصليبيون إلى البر الذي يعسكر المسلمون فيه ونصبوا للملك الفرنسي لويس التاسع خيمة حمراء، وقد حاول المسلمون التصدي لهم، لكنهم أخفقوا، وقتل عدد من الجنود المصريين[26]، وعندما أمسى الليل، أخذت القوات الإسلامية بالانسحاب من دمياط، قبيل انسحاب الأمير فخر الدين ابن شيخ الشيوخ، وأخذ بنو كنانة أيضاً بالانسحاب وولّوا الأدبار، وبالتالي غدت مدينة دمياط خالية من دفاعاتها ووسائل مقاومتها، ونتيجة قدوم الحشود الصليبية الهائلة، أيقن فخر الدين بن شيخ الشيوخ أن دمياط ساقطة لا محال فبادر إلى التخلص من الأسرى و إعدامهم على عجل[27] .

وهكذا انسحبت القوات الإسلامية من دمياط، حتى دون أن يقطعوا جسر القوارب، ويذكر جوانفيل، أن الصليبيين اعتقدوا أن انسحاب المسلمين من دمياط هو خدعة، فأرسل لويس التاسع ملك فرنسا، واحداً من الفرسان ليتحقق فيما إذا كانوا بالفعل – أي المسلمين – قد تركوا المدينة، وقد عاد ليخبر الملك بأنه قد دخل إلى قصر السلطان، وهكذا تملّك الصليبيون دمياط من دون حرب، فقد قدمت لهم على طبق من ذهب.

وعندما كان الفرح والسرور على وجوه الصليبيين في مصر والشام وأوروبا كان قد أصاب سكان مصر الهلع، وظنوا أن الصليبيين هذه المرة، لابد أنهم سيملكون البلاد، بعد أن استولوا على دمياط، وزاد في إحباط أهل مصر، وقوع ملكهم الصالح نجم الدين أيوب تحت وطأة المرض، حيث كان يعاني من السل والقرحة، لكن الصالح أيوب استولى عليه الغضب، عندما علم بفرار بني كنانة وأمر بشنقهم بعد أن استفتى فقهاء الدين الإسلامي فقالوا:

وما ذنبنا إذا كانت عساكره جميعهم وأمراؤه هربوا، فأي شيء نعمل نحن؟ وقدر عدد الذين شنقوا بما يزيد عن خمسين من أمرائهم، أما بالنسبة للأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ فقد اكتفى بالقول له: "أما قدرتم تقفون ساعة بين يدي الفرنج".

إذاً اكتفى الصالح نجم الدين أيوب بتوبيخ فخر الدين يوسف ابن شيخ الشيوخ ولم يأمر بشنقه[28]، ربما يرجع ذلك إلى مكانة فخر الدين حيث يعد قائد الجيش واليد اليمنى للسلطان الصالح، بالإضافة إلى أن الوقت وظروف الحرب لا تسمح للصالح أيوب بمحاسبة فخر الدين بن

---

(24) –عاشور: المرجع السابق، ج2، ص 837.

(25) –جمول: المرجع السابق، ص 216.

(26)– المقريزي: المصدر السابق، ج1، ق2، ص 335.

(27)– أبو بكر (نضال حاج): أسرة شيخ الشيوخ ابن حموية في العصر الأيوبي وعلاقتها رسالة أعدت لنيل درجة الماجستير، إشراف الدكتورة: اكتمال إسماعيل، 2008 م، ص 177.

(28) –ا لمقريزي: المصدر السابق، ج1، ق2، ص 336.

– ابن تغري بردي (جمال الدين أبي المحاسن يوسف): النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1992 م، ج6.

يوسف شيخ الشيوخ، كونه أتابك العسكر وقد يسبب إعدامه انقسامات في الجيش الإسلامي ويقال إن الصالح أيوب كظم غيظه وأجل ساعة الحساب لقائد جيشه.

أمّا سبب إعدام الصالح أيوب لبني كنانة فيرجع إلى أنهم عرب وليس لهم دور كبير في الجيش، وبالتالي لا تحدث انقسامات في الجيش الإسلامي، كما أنه أراد بإعدامهم تشجيعاً للجيش ورفعاً لمعنوياته وأن يبعد أذهانهم عن فكرة الهروب والانسحاب، وهكذا ترك العسكر وبني كنانة وأهل دمياط المدينة، وانسحبوا منها، واكتفوا بإحراق سوق المدينة، ونسوا تدمير الجسر الذي يربط دمياط بالضفة الغربية للنيل، وأصبحت دمياط مدينة فارغة من السكان، فدخلتها جيوش الصليبيين بسهولة وتملكوها بغير قتال[29].

ولكن ما هي الأسباب التي دفعت فخر الدين يوسف ابن شيخ الشيوخ للفرار هل الخوف والرعب، الذي أحدثه الصليبيين بقلوب العسكر نتيجة نجاحهم في النزول إلى اليابسة، أم هو انتشار شائعة مفادها أن الملك الصالح نجم الدين أيوب قد توفي، وكان لدى فخر الدين أطماع في السلطة فتوجه إلى أشموم طناح لعله ينال حظاً من السلطة.

وفاة الصالح نجم الدين أيوب وتولي تورا نشاه:

إن المرض اشتد بالصالح نجم الدين أيوب حيث لم يقوى على الحركة والنهوض من الفراش، فحمل إلى قلعة المنصورة، حيث استمر وهو على فراش الموت ينظم شؤون الدفاع، وأرسل يطلب الإمدادات من القاهرة، وأخذت العساكر في المنصورة[30]، تعمل على تجديد الأبنية ونصب فيهاالأسواق، وأصلح السور وقدم إلى المنصورة أفواج كثيرة من عوام الناس والعربان يريدون الجهاد، وأخذوا في الإغارة على الصليبيين، وتمكنوا من أسر أعداد كبيرة منهم، وتم إرسال الأسرى إلى القاهرة[31].

في حين قرر لويس التاسع ألا يغادر دمياط، حتى وصول أخيه ألفونسو كونت بواتيه، مع إمدادات الجيش الصليبي، وأخذ يعمل على تحصين المدينة فأمر بحفر خندق عميق حول المعسكر الصليبي، وأمر جنده بتنظيم حراسة المعسكر.

لقد استقر الجيش الصليبي في دمياط لمدة خمسة أشهر ونصف، دون القيام بأي عمل عسكري أو مواصلة الزحف جنوباً باتجاه القاهرة وذلك لانتظار قدوم ألفونسو كونت بواتيه على رأس قوة صليبية، وخوفهم من فيضان نهر النيل[32].

---

(29) -أبو شامة (شهاب الدين أبي محمد عبد الرحمن بن إسماعيل): الذيل عن الروضتين، الموسوعة الشامية، ج20، دار الفكر، دمشق، 1995م، ص 361.
- ابن سباط (حمزة أحمد بن عمر): صدق الأخبار، تح: عمر عبد السلام تدمري، جروس برس، ط1، طرابلس، 1993م، ج1، ص 343.
- ابن الوردي (زين الدين عمر): تتمة المختصر في أخبار البشر، تح: أحمد رفعت البدراوي، دار المعرفة، بيروت، درت، ج2، ص 263.
- ابن كثير (الحافظ): البداية والنهاية، تح: أحمد عبد الوهاب فتيح، دار الحديث، القاهرة، 1994م، م7، ج13، ص 201.
- أبو الفداء (عماد الدين إسماعيل): المختصر في أخبار البشر، دار المعرفة، بيروت، د-ت، ج3، ص 179.
- كروسيه: المصدر السابق، ص 87.
- الجبرتي (عبد الرحمن بن حسن): عجائب الآثار في التراجم والأخبار، صححه: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 1997، ج1، ص 22.

(30)- المنصورة: بلدة أنشأها الملك الكامل بين دمياط والقاهرة: الحموي (شهاب الدين ياقوت): معجم البلدان، دار صادر، بيروت، 1957 م، ج5، ص 212.

(31) -المقريزي: المصدر السابق، ج1، ق2، ص 337.
- أبو الفداء: المصدر السابق، ج3، ص 179.
- عاشور: المرجع السابق، ج2، ص 840.

(32) -يوسف (جوزيف نسيم): المرجع السابق، ص 122-123.

هذه المدة الطويلة التي قضاها لويس التاسع وجيشه في دمياط أدت إلى ضعف روح الحماس لدى الصليبيين، واستنفذت المؤن، وساعدت على حدوث خلافات بين الصليبيين.

يذكر المقريزي أن أهل دمشق لم بلغوا (أخذ الفرنج لمدينة دمياط ... أخذوا صيداء من الفرنج[33]) وذلك للتخفيف عن إخوانهم في مصر، وأنهم ليسوا وحدهم في ساحة الوغى، ولإشغال الصليبيين في الشام عن تقديم المساعدة للصليبيين في مصر.

عندما وصل ألفونسو، كونت بواتيه، في شهر رجب سنة 647 هـ/ تشرين الثاني سنة 1249 م، وانحسر فيضان نهر النيل[34]، عقد الملك الفرنسي لويس التاسع مع بارونات وقادة جيشه اجتماعاً لاتخاذ قرار بشأن الاتجاه الذي سوف يقصدونه بعد مغادرة دمياط.

هل يتوجهون إلى القاهرة عاصمة مصر، أم إلى الإسكندرية ميناء مصر الأول، وبعد جدل كبير بين قادة الجيش، قرر لويس التاسع التوجه إلى القاهرة (لأنه إذا ما أردت قتل الثعبان عليك قبل كل شيء أن تهرس رأسه[35]).

الحقيقة لو أن الصليبيين توجهوا نحو الإسكندرية لكان أفضل لهم، فالإسكندرية تقع على البحر، وبعيدة عن القاهرة ولا توجد فيها تحصينات كبيرة وحامية المدينة صغيرة، الأمر الذي سيساعد الصليبيين على الاستيلاء عليها بسهولة، وبالتالي سترتفع معنويات الجيش الصليبي، حيث يكونوا قد استولوا على دمياط، والإسكندرية، وتنخفض معنويات الجيش الإسلامي ويسيطر اليأس عليهم، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، الطريق من الإسكندرية إلى القاهرة أيسر وأسهل من الطريق من دمياط إلى القاهرة، وذلك لابتعاده عن نهر النيل وفيضانه، فضلاً على أن ميناء الإسكندرية سيستوعب السفن الصليبية ويساعدها على إفراغ الحمولة.

وفي 12 شعبان سنة 647 هـ/ 20 تشرين الثاني 1249 م، غادر الصليبيون دمياط متخذين الطريق نفسه الذي سارت عليه الحملة الخامسة غير عابئين بما آلت إليه تلك الحملة قبل ثلاثين سنة، وغير مستفيدين من أخطاء وأسباب إخفاقها[36].

وبعد يومين من خروج الحملة من دمياط باتجاه القاهرة توفي الملك الصالح نجم الدين أيوب في 14 شعبان سنة 647 هـ / 22 تشرين الثاني سنة 1249م. وكان عمره أربع وأربعين سنة، بعد أن حكم مصر تسع سنين وثمانية أشهر وكان للملك الصالح أيوب ثلاثة أولاد، لم يبق منهم سوى المعظم تورانشاه الذي كان مقيماً بحصن كيفا[37].

توفي الصالح أيوب ولم يوص بالحكم من بعده، فلمّا توفي، تسلمت أرملته شجرة الدر أم خليل أمور الحكم، وعزمت على كتم خبر وفاة زوجها إلا عن فخر الدين بن شيخ الشيوخ، والطواشي جمال الدين محسن الصالحي، اللذان كانا موضع ثقتها، وأرسلت الأمير فارس الدين اقطاي الجمدار لاستقدام ابن زوجها الوحيد، وولي عهده تورانشاه، إلى مصر لتسلم زمام الأمور، كما أنها أخذت تخرج الكتب والمراسيم باسم

(33) –المقريزي: المصدر السابق، ج1، ق2، ص 337.
(34) –جمول: المرجع السابق، ص 219.
(35) –جوانفيل: المصدر السابق، الموسوعة الشامية، ج36، ص 76 – 77.
(36) –جمول: المرجع السابق، ص 219.
(37) –أبو الفداء: المصدر السابق، ج3، ص 180.
– ابن كثير: المصدر السابق، ج13، ص 201.
–أبو شامة: المصدر التقدم، الموسوعة الشامية، ج20، ص 326.
–حسن (علي إبراهيم): تاريخ المماليك البحرية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1944.

الصالح أيوب كما لو كان حياً، ثم جمعت الأمراء والأجناد وقالت لهم إن الصالح أيوب يأمرهم أن يحلفوا له، ثم من بعده لابنه المعظم تورانشاه، وللأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ بأتابكية العسكر[38].

وهنا نستطيع القول أن شجرة الدر أرملة الصالح أيوب كانت على درجة عالية من الذكاء والقدرة على تسيير شؤون الحكم في أحرج اللحظات، فهي أخفت خبر وفاة زوجها الصالح أيوب، حرصاً على معنويات الجيش الإسلامي أن تنهار إذا علموا بوفاة ملكهم، وأيضاً حتى لا تحدث في الجيش الإسلامي انقسامات وخلافات في وقت كانت الأخطار تحيق بالأمة العربية الإسلامية، كما أنها بإخفائها خبر وفاة زوجها الصالح أيوب، تكون قد حرمت الصليبيين من استغلال تلك الفرصة بالهجوم على معسكر الجيش الإسلامي هذا من ناحية ومن ناحية أخرى، أرسلت إلى المعظم تورانشاه الوريث الوحيد لعرش أبيه- المقيم آنذاك بحصن كيفا – بالإسراع بالقدوم إلى مصر لتسلم زمام الأمور، ولم تكتف بذلك، إنما عملت على تهيئة الجو لاستلامه الحكم، عندما طلبت من الأمراء والأجناد أن يحلفوا له، فهي بموقفها هذا حافظت على استمرار الحكم الأيوبي وجاءت بالمعظم تورانشاه لرفع معنويات الجيش الإسلامي كونه ابن الصالح أيوب، وبهذا تكون شجرة الدر قد دخلت التاريخ، وسجلت اسمها بأحرف من ذهب.

وعلى الرغم من كل الاحتياطات التي اتخذتها شجرة الدر، فقد تسرب خبر وفاة الصالح أيوب إلى الصليبيين، فارتفعت معنوياتهم وتابعوا زحفهم جنوباً باتجاه القاهرة، وأسطولهم يحاذيهم في نهر النيل، ووصلوا إلى تربة فارسكور في 24 شعبان سنة 647 هـ / 2 كانون الثاني 1249 م، دون أن يلقوا أية مقاومة جدية من جانب المسلمين، واستأنفوا سيرهم حتى نزلوا شار مساح[39].

واصل الصليبيون زحفهم حتى نزلوا قبالة جيش المسلمين، شمالي بحر أشموم، إذ ينقسم نهر النيل إلى فرعين، دمياط ورشيد، وينقسم فرع دمياط شمال مدينة المنصورة إلى فرعين، يتجه الأول إلى دمياط، والثاني في اتجاه شمالي شرقي، حيث يمر بمدينة أشموم طناح وهذا الفرع هو بحر أشموم حيث أقام الصليبيون معسكرهم على ضفته الشمالية، ورابط المسلمون على ضفته الجنوبية[40].

كان الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ، قد أقام في المنصورة ومنها أخذ ينظم هجمات مفاجئة ضد الصليبيين في محاولة لعرقلة زحفهم نحو الجنوب، حيث أرسل ستمائة فارس من الجيش الإسلامي لمهاجمة الصليبيين بين فارسكور وشارمساح، ومع أن الهزيمة قد حلّت بالمسلمين إلا أنهم تمكنوا من أسر أعداد كبيرة من الصليبيين، وكان هؤلاء الأسرى يرسلون تباعاً إلى القاهرة.

إن المكان الذي عسكر فيه الصليبيون كان حصيناً للغاية حيث كان محاطاً بجهتين من الماء، وأمر لويس التاسع، بحفر عدة حفر ملأها بالماء في الجهة الثالثة، حتى لا يتمكن المغيرون من الوصول إلى معسكره، ورابطت السفن الصليبية في النيل لتحميه من أي هجوم من جانب النهر[41].

ومع تلك التحصينات الطبيعية منها والاصطناعية التي أوجدها الصليبيون فإن ذلك لم يمنع المسلمين من مهاجمة المعسكر الصليبي ومحاولة أسر بعض جنوده، يروي المقريزي (أن شخصاً أخذ بطيخة أدخل فيها رأسه وغطس في الماء إلى أن قرب من الفرنج فظنوه بطيخة فما هو إلا

(38) -أبو الفداء: المصدر السابق، ج3، ص 180.

-الشيخ (زاهدة محمد طه): طوائف المماليك ودورها في سقوط الدولة الأيوبية، مجلة المعرفة، العدد 482، تشرين الثاني، 2003م، دمشق، 124-134، ص 127.

(39) – المقريزي: المصدر السابق، ج1، ق2، ص 46-47.

– جمول: المرجع السابق، ص 222.

(40) – جمول: المرجع السابق، ص 222.

(41) – عاشور: المرجع السابق، ج2، ص 348.

أن نزل أحدهم ليتناولها إذا اختطفه المسلم، وعام به حتى قدم إلى المسلمين[42]). ولا عجب بذلك فنحن ننتمي لأمة تمتاز بالشجاعة والإباء، ولا تهاب الموت، فالمسلم لديه هدفان كلاهما أثمن وأغلى من الآخر الشهادة أو النصر.

إن الموضع الذي عسكر فيه لويس التاسع كان أشبه بشبه جزيرة، فقد كان محاط بثلاث جهات بالماء، بينما عسكر المسلمون على الضفة الثانية لبحر أشموم، وأخذوا ينظمون استعداداتهم وكان عددهم يزداد يوم بعد يوم، وسرعان ما قرر لويس التاسع عبور بحر أشموم عن طريق مخاضة سلمون، دله عليها أهل بلدة سلمون، وكان غالبيتهم من غير المسلمون[43].

الحقيقة أن الصليبيون حاولوا الاتصال بالأقليات غير المسلمة التي تعيش في الشرق، فنرى لويس التاسع عندما كان في قبرص طلب من ملك أرمينيا مساعدة الصليبيين.

عندما علم فخر الدين بعبور الصليبيين لبحر أشموم جمع رجاله وأخذ يستعد لمواجهة الصليبيين، الذي تمكنوا من إلحاق هزيمة ساحقة بالجيش الإسلامي، وتمكنوا أيضاً من قتل فخر الدين ابن شيخ الشيوخ[44].

وأصاب الغرور كونت دي أرتو، أخو لويس التاسع، وتملكته الأنانية، وأراد الانفراد بالنصر وتحقيق مجد شخصي، ظناً منه أن مقتل فخر الدين بن شيخ الشيوخ واضطراب أوضاع المسلمين داخل المنصورة، عوامل مساعدة وكافية لتحقيق مأربه وقد وصفه متى باريس بقوله (كان متجبراً وارعناً وشرهاً للحصول على مجد عابث)[45].

فاندفع بجيشه تجاه أزقة المنصورة لمطاردة فلول القوات الإسلامية التي ما لبثت أن نظمت صفوفها، واستجمعت قواها، بعد أن تولى قيادتها قائداً جديداً هو بيبرس البندقداري، قائد المماليك البحرية، الذي تصدى للقوة الصليبية المهاجمة، بكل عزيمة وقوة، ولم يقع على عبء الدفاع عن المدينة على الجيش وحده، بل بادر الأهالي إلى قذف الصليبيين بالحجارة والسهام والرماح من فوق أسطحة البيوت ونوافذ الغرف، وانتهت تلك المواجهة عن مقتل أكثر من ألف وخمسمائة فارس، وعلى رأسهم كونت دي أرتو، أخو لويس التاسع على رأي المقريزي[46]، بينما يذكر جوانفيل أن عدد القتلى بلغ ثلاثمائة فارس مع عدد من فرسان الداوية[47]. وهنا نستطيع القول إن سبب انتصار المسلمين وهزيمة الصليبيين يعود إلى تسرع كونت دي أرتو الذي لم ينتظر عبور بقية الجيش الصليبي لبحر أشموم، ورغبته بتحقيق مجد شخصي، بينما قابل المسلمون انقسام الجيش الصليبي، بتوحد أهالي المنصورة مع الجيش، ويعود أيضاً إلى شجاعة المماليك البحرية وعلى رأسهم بيبرس البندقداري الذي بدأ نجمه بالظهور منذ تلك المعركة التي يمكن القول إنها بداية النهاية للحملة الصليبية السابعة.

وعندما علم لويس التاسع بتلك المواجهة، اندفع نحو المنصورة لإنقاذ أخيه من محنته– ولم يكن قد علم بما حدث لأخيه– فتصدت له عساكر المسلمين وأجبرته على العودة صوب الضفة الجنوبية لبحر أشموم. وفي يوم الجمعة 7 ذي القعدة سنة 647 هـ / 11 شباط سنة 1250 م، اندفع فرسان المسلمين ومشاتهم صوب المعسكر الصليبي وعلى رأسهم بيبرس البندقداري الذي خطط للمعركة، إلا أنه لم يستطع تحقيق النصر، نتيجة ثبوت الجيش الصليبي وعلى رأسه لويس التاسع، الذي أجبر بيبرس البندقداري على التراجع صوب المنصورة[48].

---

(42) – المقريزي: المصدر السابق، ج1، ق2، ص 348.

(1)– عاشور: المرجع السابق، ج2، ص 843.

(44) – باريس: المصدر السابق، الموسوعة الشامية، ج48، ص 1133،

– جمول: المرجع السابق، ص223

(45)– المقريزي: المصدر السابق، ق1، ق2، ص 350.

(46) – المقريزي: المصدر السابق، ج1، ق2، ص 350.

(47) – جوانفيل: المصدر السابق، الموسوعة الشامية، ج36، ص 89.

(48) – جوانفيل: المصدر السابق، الموسوعة الشامية، ج36، ص 105 –109.

كان المعظم تورانشاه بن صالح أيوب قد وصل إلى دمشق في أواخر شهر رمضان سنة 647 هـ /كانون الأول سنة 1249م، ونودي به سلطاناً في دمشق ثم توجه إلى مصر، حيث وصل المنصورة في شهر ذي القعدة سنة 647هـ / شباط سنة 1250 م، وسلمت شجرة الدر مقاليد السلطة إلى تورانشاه، وارتفعت الروح المعنوية لدى المسلمين واستبشر الناس خيراً بقدومه[49].

أوضاع الصليبيين:

بعد مضي تسعة أيام من القتال بين الصليبيين والمسلمين، انتشر وباء مروع وقاتل في الجيش الصليبي، وذلك لعدم دفن جثث القتلى التي تفسخت وانتشرت منها الروائح والأمراض، إضافة إلى انتشار مرض تورم اللثث وإصابتها بالغنغرينا[50].

وأخذت تراود لويس التاسع فكرة الانسحاب إلى دمياط كونها مدينة حصينة يمكن أن يحتمي الصليبيون فيها، وأن يستخدمها في مساومة المسلمين عليها، وخاصة بعد استحالة الزحف نحو القاهرة.

كانت السيطرة على مياه النيل فيما بين دمياط وبحر أشموم للسفن الصليبية التي تولت مهمة إمداد المعسكر الصليبي بما يحتاجه من إمدادات ومؤن،[51]وبقدوم تورانشاه تغير الموقف، حيث أمر بصنع عدة مراكب تم شحنها بالميرة والمقاتلة وحملت على الجمال إلى بحر المحلة، فلما جاءت مراكب الصليبيين لبحر المحلة خرجت عليها مراكب المسلمين وقاتلتها، وقدم أسطول المسلمين مطبقاً من جهة المنصورة، وانهزم الصليبيون في هذه المواجهة، واستولى المسلمون على اثنين وخمسين مركباً صليبياً، بما فيها من مؤن وأقوات، وقتلى وأسرى من الصليبيين قرابة ألف شخص، وفي الجولة الثانية من المواجهات، استولى المسلمون على اثنين وثلاثين مركباً صليبياً[52].

وكان من أهم نتائج تلك المواجهات، انقطاع المواصلات بين الصليبيين وقاعدتهم في دمياط، الأمر الذي أدى إلى نقص في الإمدادات والمؤن لدى الصليبيين، فأخذوا يعانون من الجوع، ويصف جوانفيل مؤرخ الحملة الصليبية السابعة، أوضاع الصليبيين بقوله (فبسببهم –أي المسلمين– لم يعد أحد يتجرأ على القدوم ليجلب لنا ميرة جديدة وأطعمة .....وبلغ الأمر حداً أنه جرى تقدير ثمن الثور في عيد الفصح بثمانين ديناراً، والشاة الواحدة أو الخنزير بثلاثين ديناراً للرأس الواحد في حين بلغت قيمة البيضة اثني عشر درهماً)[53].

وهكذا انهارت الروح المعنوية لدى الصليبيين لكثرة القتلى بين صفوفهم وانقطاع المؤن وتفشي الأمراض، أما الملك الفرنسي لويس التاسع فقد لجأ إلى فتح باب المفاوضات مع المسلمين على قاعدة تركه دمياط وأخذه لبيت المقدس وأن يرعى المسلمون مرضى الصليبيين ويصونوا معداتهم، وهدف لويس التاسع من ذلك العرض، أن يضرب عدة عصافير بحجر واحد فيسترد بيت المقدس في الوقت الذي شعر بعجزه عن

(49) –ابن سباط: المصدر السابق، ج1، ص 347.
– أبو الفداء: المصدر السابق، ج3، ص 180.
– ابن تغري بردي: المصدر السابق، ج6، ص 364.
– جمول: المرجع السابق، ص 225.
(50) – زكار (سهيل) وآخرون: حروب صليبية، ط2، جامعة دمشق، 2006 م، ص 377،.
(51) – عاشور: المرجع السابق، ج2، ص 846.
(52) – المقريزي: المصدر السابق، ج1، ق2، ص 353.
–عمارة (محمد): دراسات في الوعي بالتاريخ، دار الوحدة، ط1، بيروت، 1981، ص 73.
(53) –جوانفيل: المصدر السابق، الموسوعة الشامية، ج36، ص 114.

الاحتفاظ بدمياط، ثم يضمن لنفسه ولجيشه انسحاباً آمناً وسليماً من مصر دون التعرض لمطاردة المسلمين،[54] وبما أن كفة المسلمين كانت الرابحة، فقد تم رفض عرض لويس التاسع ليقينهم أن عامل الزمن كان يضغط على الصليبيين نتيجة نقص المؤن وتفشي المرض[55].

أسر لويس التاسع وجنوده:

بعد أن أدرك الصليبيون وعلى رأسهم لويس التاسع صعوبة الهجوم على المنصورة، بسبب قوة المسلمين، وسيطرتهم على الملاحة في النهر، وانهيار الروح المعنوية لدى جنوده، ولم يعد باستطاعتهم البقاء في معسكرهم بسبب نقص المؤن والإمدادات وتفشي الأمراض والأوبئة، وتعرضهم لغارات المسلمين، وأيضاً بعد رفض المسلمين، وعلى رأسهم السلطان تورانشاه الشروط التي وضعها الصليبيون للصلح، لم يعد أمام لويس التاسع سوى الانسحاب إلى دمياط ولكن ذلك الانسحاب كان محفوفاً بالمخاطر حيث خشي لويس التاسع أن يتعرض إلى كارثة حربية أثناء انسحابه إلى دمياط، ومع ذلك لم يكن لديه حلاً آخر .

في شهر محرم سنة 648 هـ/ نيسان سنة 1250 م، شرع الصليبيون بترك معسكرهم على الضفة الجنوبية لبحر أشموم، منسحبين نحو الضفة الشمالية لينطلقوا بعدها إلى دمياط، عندها أخذت قوات المسلمين تتعقب الجيش الصليبي الهارب قتلاً وأسراً.

وعندما وصلت مقدمة الجيش الصليبي إلى قرية فارسكور، كان قد غلب المرض على لويس التاسع ومعظم رجال جيشه، وأدرك المسلمون أن الوقت حان لشن هجوم واسع النطاق على الجيش الصليبي المتعب والجائع والمريض الذي يجر ورائه ذيول الهزيمة، ومنعه من الوصول إلى دمياط الحصينة، حيث دارت المعركة بين المسلمين والصليبيين عند فارسكور، وفيها حلت الهزيمة بالجيش الصليبي، ووقع الجيش الصليبي بين قتيل وأسير[56].

وعند ذلك وقف لويس التاسع مع بعض أمرائه وأقربائه على تلّ عال، وأخذ يطلب الأمان له، ولمن معه، فأرسل إليه الملك المعظم تورانشاه، مجموعة من الأمراء قبضوا عليه وعلى أقربائه وقيدهم[57].

وسيق الملك الفرنسي لويس التاسع مكبلاً بالأغلال إلى المنصورة حيث سجن بدار القاضي فخر الدين إبراهيم بن لقمان، وعهد إلى الطواشي صبيح المعظمي بحراسته، وخصص له من يقوم بخدمته[58].

---

(54) –عاشور: المرجع السابق، ج2، ص 847.

(55) – جمول: المرجع السابق، ص 226.

(56) – كروسيه (رنيه): الحروب الصليبية صراع الشرق والغرب، تر: أحمد أيبش، دار قتيبة، ط1، دمشق، 2002، ص 88.

– جوانفيل: المصدر السابق، الموسوعة الشامية، ج36، ص 118-120.

– متى باريس: المصدر السابق، الموسوعة الشامية، ج48، ص 114، 145.

– أبو شامة: المصدر السابق، الموسوعة الشامية، ج20، ص 364.

– المقريزي: المصدر السابق، ج1، ق2، ص 355-356.

– أبو الفداء: المصدر السابق، ج3، ص 181، عمارة: المرجع السابق، ص 73.

– ابن سباط: المصدر السابق، ج1، ص 348.

(57) – ابن إياس (محمد ابن أحمد): بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق: محمد مصطفى، الدار المصرية العامة للكتاب، ط2، القاهرة، 1982م، ج1، ق1، ص 281.

(58) – أبو الفداء: المصدر السابق، ج3، ص 181.

– المقريزي: المصدر السابق، ج1، ق2.

وأرسل المعظم تورانشاه ببشارة النصر إلى القاهرة على يد الأمير شهاب الدين بن موسى بن يغمور والي القاهرة، الذي دخل وعليه ثياب الملك لويس التاسع (أشكر لاط مخمل أحمر بفرو سنجاب وقلنسوة من ذهب) وعمت الفرحة أهل مصر، وكتبت المراسيم السلطانية إلى سائر البلدان والمناطق الإسلامية، لإخبارهم بهذا النصر العظيم.

وغنم المسلمون أشياء كثيرة من القماش والسلاح حتى قيل بيع كل سيف بنصفين فضة، وكل درع بثمانية أنصاف، وكل فرس بعشرة أنصاف[59].

الحقيقة أن قيام المسلمين بتعقب الجيش الصليبي الهارب إلى دمياط كان فعل صائب، لأنه لو تمكن الصليبيون من الوصول إلى دمياط لاستحال على المسلمين طرد الصليبيين من مصر، كون مدينة دمياط حصينة، وتوجد فيها المؤن، ويمكن أن تصلها إمدادات من أوربا وأيضاً من الصليبيين بالشام وفيها سيستجمع الصليبيون قواهم، وربما يقومون بهجوم ثاني باتجاه القاهرة، وبذلك يطول عمر الحملة الصليبية السابعة.

بنود الاتفاق وإطلاق سراح لويس التاسع:

أراد تورانشاه أن يستغل وقوع الملك الفرنسي في الأسر وأن يضغط عليه لإجباره على تقديم التنازلات، فلجأ إلى فتح باب المفاوضات معه، فطلب منه أن يتنازل عن بعض المعاقل الصليبية في بلاد الشام[60]، فكان رد لويس التاسع على ذلك بقوله (بأنه لا يملك القدرة على تسليم أياً من هذه القلاع، لأنها ممنوحة من قبل الإمبراطور الحاكم في ألمانيا) أي أنها ليست ملكه، ولا يستطيع التصرف بها، فهي ملك للإمبراطور الألماني فردريك الثاني.

ثم طلب منه التنازل عن بعض القلاع العائدة إلى فرسان الداوية والاسبتارية فكان الجواب أيضاً (بأن هذا من غير الممكن القيام به لأن شحن هذه القلاع، أقسموا لدى تسليمهم مناصبهم على الأناجيل المقدسة أنهم سوف لن يسلموا أياً من هذه القلاع مقابل الحصول على حرية أي إنسان أو إطلاق سراحه من الأسر).

إذاً لا يستطيع لويس التاسع التصرف بتلك القلاع فهي ليست ملكه، وإذا أراد المسلمون أخذها، فعليهم أن يحاربوا حامية تلك القلاع، ورد لويس التاسع على تهديدات المسلمون له ((بأنه كان أسيرهم وبإمكانه أن يفعلوا معه كما يرغبون))[61].

وبعد أن فشل المسلمون في إجباره على تقديم تنازلات سياسية على أرض الواقع، طلبوا منه التنازل عن دمياط وتفاوضوا معه على حجم الفدية التي سيقدمها عن نفسه، وعن جنوده، ثم ما لبس الطرفان أن توصلا إلى اتفاق وفق الشروط التالية:

1-يسلم الملك الفرنسي مدينة دمياط فدية عن نفسه.

2-يدفع الملك الفرنسي مبلغ أربعمائة ألف ليرة ذهبية من أجل إطلاق سراح أتباعه.

3-يستمر الصلح لمدة عشر سنوات[62].

---

(59) – ابن إياس: المصدر السابق، ج1، ق1، ص 281.

(60) – أبو الفداء: المصدر السابق، ج3، ص 181.

-المقريزي: المصدر السابق، ج1، ق2، ص 356.

(61) -جوانفيل: المصدر السابق، الموسوعة الشامية، ج 36، ص 127-130.

(62) -جوانفيل: المصدر السابق، الموسوعة الشامية، ج36، ص 131.

- جمول: المرجع السابق، ص 227.

وأقسم الطرفان على احترام شروط الصلح، وهكذا تمكن لويس التاسع من الاحتفاظ بحياته، مقابل تسليم دمياط للمسلمين، وإطلاق سراح أتباعه مقابل فدية أربعمائة ألف ليرة ذهبية، وأخذ ينتظر الوقت الذي سيطلق فيه سراحه، ولكن الأقدار لعبت دورها، وذلك لمقتل تورانشاه على يد المماليك البحرية[63].

وكان من أهم نتائج مقتل تورانشاه، انتقال حكم مصر من الأيوبيين إلى المماليك، فكان على لويس التاسع التفاوض ثانية، ولكن مع المماليك، حيث عقد الطرفان معاهدة صلح تشبه سابقتها، التي عقدت بين المعظم تورانشاه وبين لويس التاسع، سوى شرط إضافي يقضي بدفع الملك الفرنسي مبلغ مائتي ألف ليرة ذهبية للمسلمين قبل مغادرته مصر، ودفع مبلغ مماثل لدى وصوله إلى عكا وأقسم الطرفان على الالتزام بهذه الشروط[64].

استعادة المسلمين لدمياط:

الملك الفرنسي لويس التاسع كان قد وافق على تسليم دمياط فدية عن نفسه، لذلك أرسل أربعة من فرسانه ومعهم بعض أمراء المسلمين مع رسائل إلى النائب البابوي، والدوق والمسؤولين عن المدينة (دمياط)، وأعطاهم شارة وأقنعهم بإعادة دمياط للمسلمين.

وعندما وصلوا أبواب المدينة، سلموا الرسائل إلى الصليبيين في المدينة وحينما علم الصليبيون ما في الرسائل، انتابهم الحزن وظلوا وقتاً طويلاً وهم في حيّرة حول الذي عليهم فعله، حيث تخوفوا بعد تسليمهم دمياط للمسلمين، أن يقوم المسلمون بتسميم لويس التاسع، إلا أنهم غيروا رأيهم ووافقوا على تسليم المدينة بعد أن علموا بأن الملك الفرنسي لا يتسلم الطعام والشراب من أيدي أي من المسلمين.

وبعد أن تسلموا ضمانات حول سلامة الملك الفرنسي لويس التاسع، وكذلك سلامتهم حتى الوصول إلى عكا، تخلى ولاة المدينة عن مفاتيحها، وقبل أن ينسحبوا منها دمروا جميع المؤن، حتى لا يستفيد المسلمون منها[65]. في مقابل ذلك أطلق المماليك سراح لويس التاسع بعد أن بقي في الأسر أكثر من شهر.

وفي يوم الجمعة من شهر صفر سنة 648هـ / 7 أيار سنة 1250 م، دخل الجيش الإسلامي دمياط، ورفعت الأعلام الإسلامية على أسوار المدينة وأبراجها، بعد أن ظلت بأيدي الصليبيين قرابة السنة[66]. وأشار بعض الأمراء على السلطان بهدم المدينة، نتيجة خوفهم من

(63) -كروسيه: المصدر السابق: ص 88
- المقريزي: المصدر السابق، ج1، ق2، ص 60.
- أبو الفداء: المصدر السابق، ج3، ص 181
- ابن سباط: المصدر السابق، ج1، ص 349.
- أبو شامة: المصدر السابق، الموسوعة الشامية، ج20، ص 365.
- الجبرتي: المصدر السابق، ج1، ص 23.
- الذهبي (الحافظ): العبر في خبر من غبر، تحقيق: محمد السعيد بن بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، بيروت، د – ت، ج3، ص 216.
(64) -المقريزي: المصدر السابق، ج1، ق2، ص 362.
- ابن تغري بردي: المصدر السابق، ج6، ص 368-369.
(65) - باريس: المصدر السابق، الموسوعة الشامية، ج48، ص 1150-1151.
(66) - ابن سباط: المصدر السابق، ج1، ص 346،
- المقريزي: المصدر السابق، ج1، ق2، ص 63.

وقوعها ثانية بأيدي الصليبيين، وصعوبة طردهم منها نتيجة قوة تحصينات المدينة، فقبل السلطان، وتم هدم المدينة، واستمرت خراباً إلى أيام الظاهر بيبرس البندقداري الذي أمر بتجديدها.(67)

ولنتوقف مع أبيات من الشعر، نقتطفها من القصيدة التي نظمها الشاعر المصري جمال الدين بن مطروح، المعاصر للحملة الصليبية السابعة إذ يقول:

قل للفرنسيسإذا جئتهمقال صدق عن قؤول نصيح

أتيت مصراً تبتغي ملكهاتحسب أن الزمر يا طبل ريح

وكل أصحابكأوردتهمبحسن تدبيرك بطن الضريح

خمسون ألفا لا يرى منهمغير قتيل أو أسير وجريح

وقل لهم أن أضمروا عودةلأخذ نار أو لقصد صحيح

دار ابن لقمان على حالها والقيد باقي والطواشي صبيح(68)

ويستدل من هذه الأبيات على عدد القتلى والأسرى من الصليبيين، يمكن أن نزداد يقيناً من أن دار ابن لقمان، كانت فعلاً مأوى لاعتقال الملك الفرنسي لويس التاسع، وأن الطواشي صبيح المعظمي قد قام بحراسته.

أسباب إخفاق الحملة الصليبية السابعة:

يعود إخفاق الحملة الصليبية السابعة، لمجموعة من الأسباب بعضها يتعلق بالصليبيين أنفسهم، وبعضها يتعلق بالمسلمين وهي:

عدم استفادة الصليبيين من دروس الماضي، وجهلهم بجغرافية مصر، وظهر ذلك جلياً في اختيارهم للطريق نفسه الذي سارت عليه الحملة الصليبية الخامسة، حيث تكثر الترع والقنوات والأنهار.

بطء سير الحملة، وفقدانها عنصر المفاجأة، حيث استقر الصليبيون في قبرص لثمانية أشهر، وفي دمياط لأكثر من خمسة أشهر، الأمر الذي أدى إلى انتشار خبر الحملة، وضعف الروح المعنوية لدى الصليبيين وإلى إتاحة الفرصة للمسلمين للاستعداد للحملة والتصدي لها.

انتشار الخلافات بين أمراء وبارونات الحملة، حول الطريق الذي ستسير عليه الحملة بعد دمياط، وانقسام الصليبيين إلى قسمين: الأول: يريد التوجه إلى الإسكندرية والثاني: يريد التوجه إلى القاهرة، وهذا يدل على سوء التخطيط للحملة وعدم وجود خطة مسبقة لسير الحملة.

عدم التقيد بأوامر الملك الفرنسي لويس التاسع، وظهر ذلك جلياً من خلال قيام الكونت دي أرتو، أخو لويس التاسع بالهجوم على المنصورة من دون علم الملك الفرنسي لويس التاسع، الأمر الذي أدى إلى مقتله وهزيمة الصليبيين.

---

(67) – ابن إياس: المصدر السابق، ج1، ق1، ص 281-282.

(68) –المقريزي: المصدر السابق، ج1، ق2، ص 363.

– أبو الفداء: المصدر السابق، ج3، ص 182.

– ابن تغري بردي: المصدر السابق، ج6، ص 370.

– جمول: المرجع السابق، ص 230.

بروز قوة المماليك البحرية ولا سيما قائدهم بيبرس البندقداري والشجاعة الكبيرة التي أظهروها ولا سيما في معركة المنصورة، الأمر الذي أدى إلى ارتفاع الروح المعنوية للمسلمين وانخفاضها لدى الصليبيين.

أمّا السبب الأخير والذي يتعلق بمصر، فهو توحد جميع فئات وعناصر الشعب في التصدي للحملة، ومشاركة الأهالي مع الجيش ولا سيما في معركة المنصورة، وذلك بقذف الصليبيين بالحجارة والسهام والرماح من فوق أسطحة البيوت، ونوافذ الغرف، الأمر الذي أدى إلى إلقاء الرعب والخوف في قلوب الصليبيين.

وتتجلى أهمية الحملة الصليبية السابعة من خلال النقاط الآتية:

أنها جاءت نتيجة أوضاع الصليبيين السيئة في بلاد الشام من خلال السفارة التي أرسلها بطريرك القدس والتي أسفرت عن عقد مجمع ليون، فالغرب الأوربي ملتزم بأمن الكيانات الصليبية في الشام، كما هو ملتزم الآن بأمن الكيان الصهيوني.

أيضاً تظهر أهميتها من خلال قيام الملك الفرنسي لويس التاسع شخصياً بقيادتها وتأييد البابوية لها.

الاتصالات التي أجراها لويس التاسع مع الأرمن ومع المغول والصليبيين في الشام وقبرص وفرسان الداوية والاسبتارية في سبيل الحصول على تأييد ما يسمى الآن بالعالمي أو الدولي للحملة، وأيضاً من أجل الحصول على الدعم سواء أكان بشرياً أو معنوياً أو مادياً.

أمّا بالنسبة للمشرق العربي الإسلامي فتظهر أهميتها في توحد كافة عناصر وأجناس وشعوب الشرق من عرب وأكراد وأتراك ومماليك وغيرهم في التصدي لتلك الحملة، وفي توحّد الأهالي مع الجيش ولا سيما في معركة المنصورة.

نتائج الحملة الصليبية السابعة:

كان للحملة الصليبية السابعة نتائج كبيرة على صعيد المشرق العربي الإسلامي عامة ومصر والشام خصوصاً، حيث امتد تأثيرها إلى سنة 1226هـ / 1811م وكان من أهم نتائجها:

ظهور قوة المماليك البحرية ولا سيما قائدها بيبرس البندقداري الذي استطاع أن يحوّل انتصار الصليبيين ونجاحهم في دخول المنصورة إلى كارثة أدت إلى مقتل كونت دي أرتو أخو لويس التاسع وإلى هزيمة الجيش الصليبي.

وضعت الحملة الصليبية السابعة خط النهاية للحكم الأيوبي للدولة العربية الإسلامية، وذلك بوفاة الصالح نجم الدين أيوب ومقتل ابنه الوحيد المعظم تورانشاه.

ساعدت معركة المنصورة المماليك البحرية على استلام الحكم، وذلك بزواج شجرة الدر أرملة الصالح نجم الدين أيوب من عز الدين أيبك حيث إن ظروف الغزو الصليبي لبلاد الشام ومصر، والغزو المغولي لشرق البلاد الإسلامية، وظهور روح الجهاد في تلك الحقبة، ساعد المماليك على تولي سدة الحكم مع أنهم غرباء عن البلاد، إلى أن انتهى أمرهم في مذبحة القلعة على يد محمد علي باشا سنة 1226هـ /1811م.

أمّا بالنسبة لأوروبا الغربية، فقد أوضحت مدى الخلافات بين ملوكها وبين البابوية، ولا سيما الخلاف بين الإمبراطور الألماني فريد ريك الثاني والبابا أنو سنت الرابع، وأيضاً مع البندقية التي أحجمت عن المشاركة في غزو مصر، حرصاً على مصالحها وامتيازاتها التجارية في مصر.

أدت الحملة الصليبية السابعة إلى سقوط أعداد كبيرة من القتلى سواء أكان من المسلمين أو من الصليبيين، وإلى انتشار الدمار والخراب في أرض مصر، وظهور المجاعات وانتشار الأمراض والأوبئة ولا سيما بين أفراد الجيش الصليبي.

كان للمماليك دور كبير في هزيمة الحملة الصليبية السابعة ولا سيما في معركة المنصورة، الأمر الذي ولد روح الحقد والكراهية لدى الفرنسيين على المماليك، واستمر هذا الحقد دفيناً لدى الفرنسيين إلى أن ظهر في سنة 1213هـ/ 1798 حيث كان السبب المباشر للحملة الفرنسية على مصر، ادعاء فرنسا بسوء معاملة المماليك للتجار الفرنسيين، إلى جانب الأسباب السياسية والاقتصادية وغيرها.

كان هدف الحملة الصليبية السابعة الوصول إلى القدس عن طريق مصر، إلا أن إخفاق الحملة، أدى إلى تحول مصر من وسيلة للوصول إلى القدس إلى غاية بحد ذاتها، فكانت الحملة الصليبية الثامنة على تونس.

أطالت الحملة الصليبية السابعة بعمر الكيانات الصليبية في الشرق، ذلك أن لويس التاسع بعد إطلاق سراحه توجه إلى عكا وعمل على إصلاح الخلافات بين الصليبيين، كما أن وجوده في عكا قد أعطى دفعة معنوية للصليبيين في الشرق.

خاتمة:

تعد الحملة الصليبية السابعة حلقة في سلسلة الحروب بين الشرق والغرب التي كان هدفها الأساسي السيطرة على ثروات الشرق، أدّت هذه الحملة إلى ظهور قوة المماليك البحرية، ولا سيما قائدها بيبرس البندقداري الذي استطاع أن يحوّل انتصار الصليبيين ونجاحهم في دخول المنصورة إلى كارثة أدت إلى مقتل كونت دي أرتو أخو لويس التاسع وإلى هزيمة الجيش الصليبي. وضعت الحملة الصليبية السابعة خط النهاية للحكم الأيوبي للدولة العربية الإسلامية، وذلك بوفاة الصالح نجم الدين أيوب ومقتل ابنه الوحيد المعظم تورانشاه، وساعدت المماليك البحرية على استلام الحكم، وذلك بزواج شجرة الدر أرملة الصالح نجم الدين أيوب من عز الدين أيبك.

أمّا بالنسبة لأوروبا الغربية، فقد أوضحت مدى الخلافات بين ملوكها وبين البابوية، ولا سيما الخلاف بين الإمبراطور الألماني فريد ريك الثاني والبابا أنو سنت الرابع، وأيضاً مع البندقية التي أحجمت عن المشاركة في غزو مصر حرصاً على مصالحها وامتيازاتها التجارية في مصر، كما أنها أطالت بعمر الكيانات الصليبية في الشرق، ذلك أن لويس التاسع بعد إطلاق سراحه توجه إلى عكا وعمل على إصلاح الخلافات بين الصليبيين، كما أن وجوده في عكا قد أعطى دفعة معنوية للصليبيين في الشرق.